وزارة الإعلام
الهيئة العامة للاستعلامات

حكايات مصر الطيبة
(٤)

قِصَّةُ
بِنَاءِ مَسْجِدِ ابنِ طولونَ

بقلم
أبو مسلم يوسف
رسوم
هشام حسين

إشراف : د . إسماعيل عبد الفتاح
رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٧٥٥٩
الترقيم الدولي / 977-234-049-6

(الطبعة الأولى ٢٠٠٤)

لقصة بناء مسجد "ابن طُولُونَ" حكايةٌ ظريفةٌ فبرغم أن "أحمدَ بْنَ طُولونَ" عُيِّنَ حاكماً لمصرَ عَام ٨٦٨ ميلادية ولم يَكُنْ مصرياً وكان مازالَ شاباً عمرُه ثلاثةٌ وثلاثون عاماً عندما دخَل "الفسطاط" عاصمةَ مصرَ فى ذلك الوقت لأول مرة لكنه أرادَ النهوضَ بمصر دون أن يَفْرِضَ أىَّ ضَرَائبَ جديدة علَى النَاس بالِّبلاد بل ألْغَى الكثيرَ منها واعتمدَ فى النهوض بمصرَ على تَشْجيع الزراعة لزيادة الموارد والدخل فاهتمَّ بشَقِّ الترع وازدهرت الزراعةُ فى مصرَ ولما شَعَرَ بالتكدُّس السكَانى فى مَدينة "الفسطاط" وعدم اتِّسَاعه لمساكن الجُند والأمراء والموظفين قرَّر بناءَ مدينة جديدة كبيرة تكونَ عاصمةً لمصَر وخَطَّطَ لإنشائها وتم بناؤها واستغرق إنشاؤهاً عدةً سنوات وأسْمَاها مدينة "القَطَائع" وسببُ تَسْميَتها بذلك أنَّ كلَّ قطعة منهاً كانت تُمْنَحُ لقوم فكان هناك مثلاً قطعةٌ للسودانيين وأخرى للرُّوم وأخرى للتُّرك وهكذا .

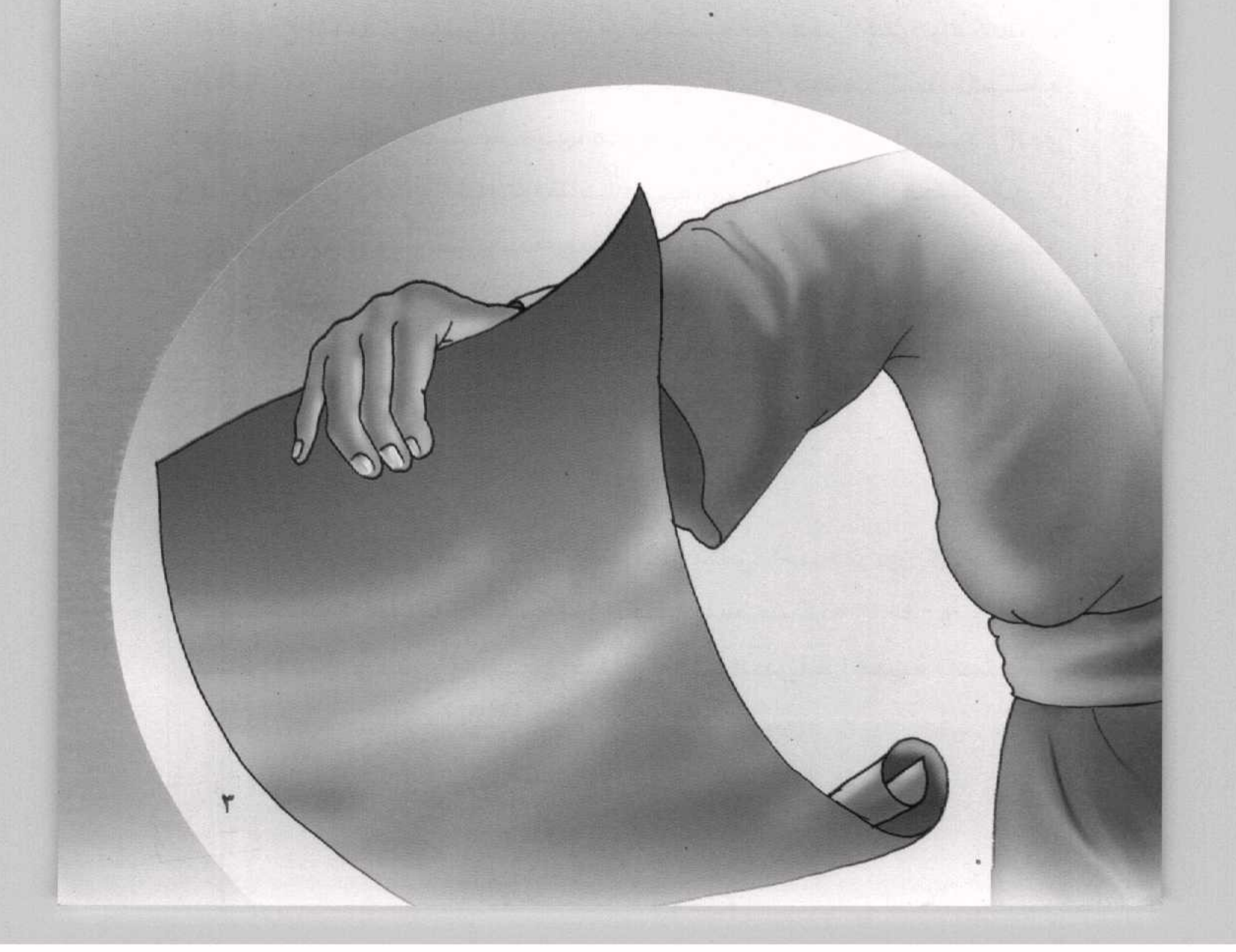
وكان من بَيْن تصميم تلك المدينة بناءُ مسجد كبير والذى سمى فيما بعد "مسجدَ بْن طولون" .

وذاتَ يوم كان يطمئنُّ "أحمد بن طولون" على إتْمَام بناء المدينة فأحْضَرَ المهندسَ المشرفَ على التنفيذ فقال له إن كلَّ المدينةَ تم بناؤها إلا المسجدَ الكبيرَ فلا يزالُ معطلاً تَعْتَرضُه العقباتُ بسبب احْتَياج المسجد إلى ثَلاَثمائَة عمود وهو عددٌ كبيرٌ جداً لم يَسْتَطع المهندس الحصولَ عليه محدثاً "أحمد بْن طولون" : توفيرُ هذه الأعمدة لابد أن يُدَبَّر من المعابد القديمة أو الكنائس التى تُهْدَمُ ويَهْجُرُها أصحابُها .

فَرَفَضَ "ابنُ طولون" الفكرةَ تماماً واسْتَنْكَرَها محدثاً المهندسَ قائلاً لا تَسلُبُوا شيئاً من كنائس الأقباط فهى دُورُ عبادة كالمساجد وعلَيْنَا أنْ نَحْمِيَها ولا نُخرِّبَها وحاولَ أحدُ وزرائه مُحَدِّثَه إنْ لمَّ يفعلْ ذلك تُّعَطَّل بناءُ

المسجد فقد ضاقَ مسجدُ العَسْكَر بالمصلين والمهندسُ لا يستطيعَ بناءَ المسجدَ سوى بذلك ورفضَ "ابن طولَون" بشدة هذا الرأىَ ومرت الشهورُ ولا يزال المسجدُ الكبير بمدينة "القطائع" مُعَطَّلاً تماماً و"أحمد بن طولون" يُصرُّ على موقفه ولا يَريدُ أن يُؤذىَ مشاعرَ أقباط مصر بهذا التصرُّف حتَى جاءت رسالَةٌ إلى "أحمد بنَ طولون" من مهندَس مسيحى بالسجنَ من أقباط مصر يَقْضِى فترةَ عقوبةٍ فى السجنِ قرأَها الحاجبُ عَلَيه . نَصُّهَا .

"مولاىَ أميرَ مصرَ "أحمد بن طولون" أنا مهندسٌ فى البناء موجودٌ فى سجن "الفسطاط" وقد عَلمْتُ أنك تريدُ بناءَ مسجد كبير فَى مدينة "القطائعَ الجديدة" وتحتاجُ إلى ثلاثمائة عمود ولا تستطيعُ تَوْفيرَها وهذا سببُ تعَطيل إنشاء المسجد وأنا أسَتطيعُ أن أبْنىَ لك المسجدَ دون أعْمدَةٍ إلا عَمُودَى القِبْلَة فإن أرَدْتَ أن تَرَى بنفسك فَاسْمَح لى بالخروج



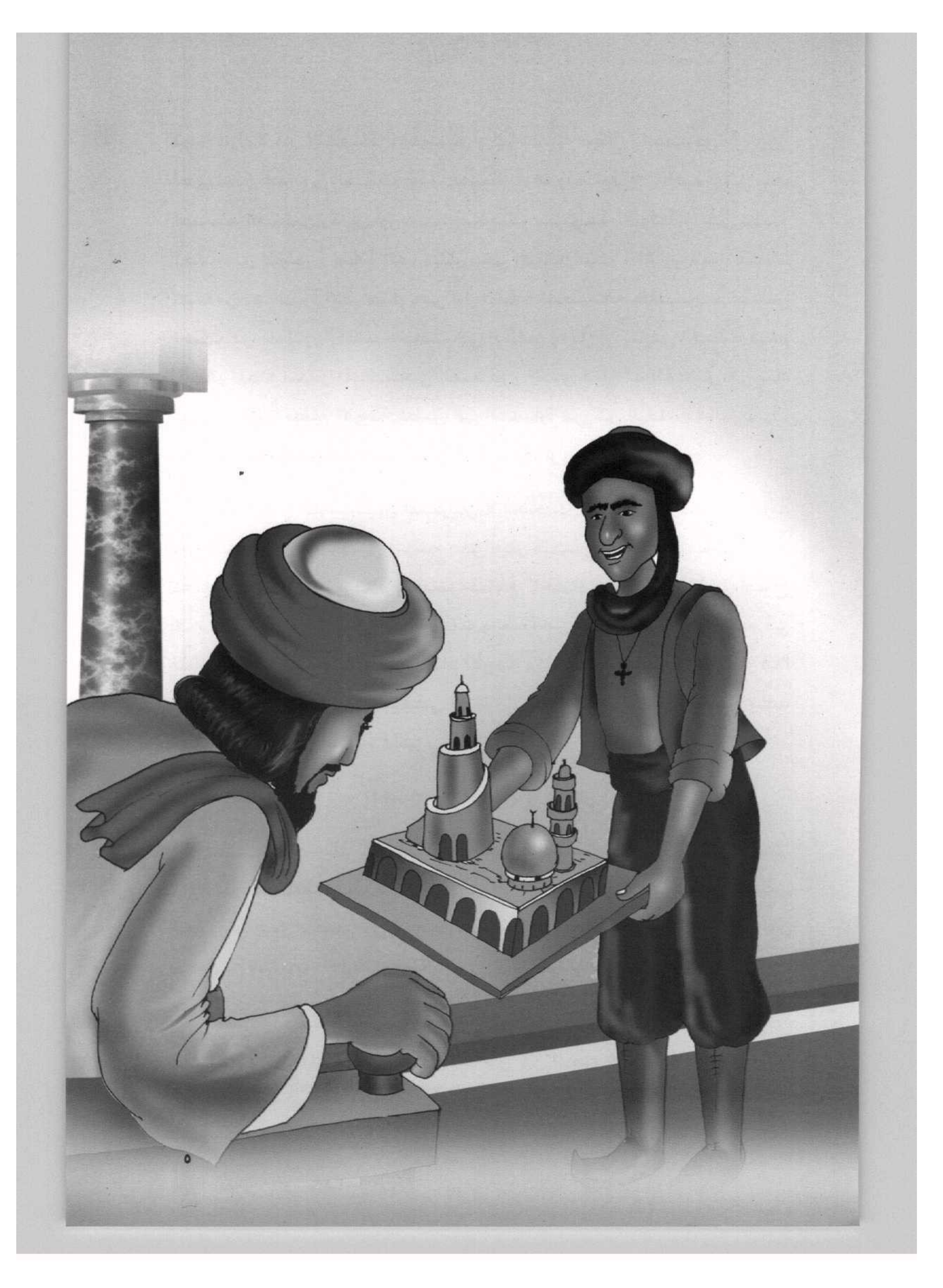
حتى أُقَدِّمَ لك البرهانَ على ما أقول» .

قال «أحمد بن طولون» أَخْرِجُوه من السجن وأَحْضِرُوه إلى هنا فوراً واستَشَار قاضىَ القُضَاة بقوله هل يجُوز أن يَبْنِى مسيحىٌّ مسجداً أو يشتركُ فى بنائه أجابه القاضى نَعَمْ يا مولاىَ يجوزُ أن يشتركَ غيرُ المسلمين فى بناء المساجد محدثاً إياه وهل تعلمُ يا مولاى أن أحَدَ أقباط مصرَ شاركَ فى بناء الكعبَة الشريفة من قبلُ وكان يَعْمَلُ نجاراً ماهراً وصنَعَ سَقْفَ الكعبَة من خشَب سفينَة قد تَحَطَّمَتْ كانت ملْكَ تاجر من الروم على شاطىء جدَّة القريبَة من مكَّة المكرمة .

وعادُوا للأمير «أحمد بن طولون» بالمهندس المسيحى الذى أرسلَ الرسالةَ وقال المهندسُ للأمير أستطيعُ أن أصنعَ نموذجاً مصغراً حتى يَرَى مولاى الأميرُ شكلَه كأنه مبنىٌّ فعلاً وأمهلَه الأميرُ بعضَ الوقت لإعْدَاد النموذج المصغَّر وطلب المهندسُ أن يَحْضرُوا له بعضَ الجلود والأخشاب والألوان ثم حَضرَ المهندسُ بعد ذلك ومعَه نموذجٌ مصغَّرٌ لبناء المسجد .وكانت هذه أولَ مرة يقومُ فيها مهندسٌ بصُنع مثل هذا النموذج الذى أصبحَ حتى العصرِ الحديث نظاماً مُتَّبَعاً فى البناء فى العصر الحديث يَدْرسُه طلابُ كلية الهندسَة ويطلقُ عليه «الماكيت» وأَعْجبَ «أحمد بن طولون» بهذا النموذج الصغير الذى ظهرَ كأنه جامعٌ حقيقىٌّ مما دَعَا «أحمد بن طولون» بسؤاله أين تَعَلَّمْتَ أيها المهندسُ صُنْعَ هذا . فأجابه بأنها فكْرَتى يا مولاىَ ولم أتعَلَّمْهَا من أحد .

وقال المهندس :

انظر يا مولاىَ إلى هذه الأرْوقَة التى تُبْنَى بالحجر دونَ حاجة إلى أعْمدَة ويُحْمَلُ عليها السقفُ فلا يَحتاجُ المسجدُ كلُّه إلا لعَمُودَيْن اثْنَيْن فَقَطْ للقبْلَة ودُهش «أحمد بن طولون» بهذه الطريقة الجديدة باستعمال



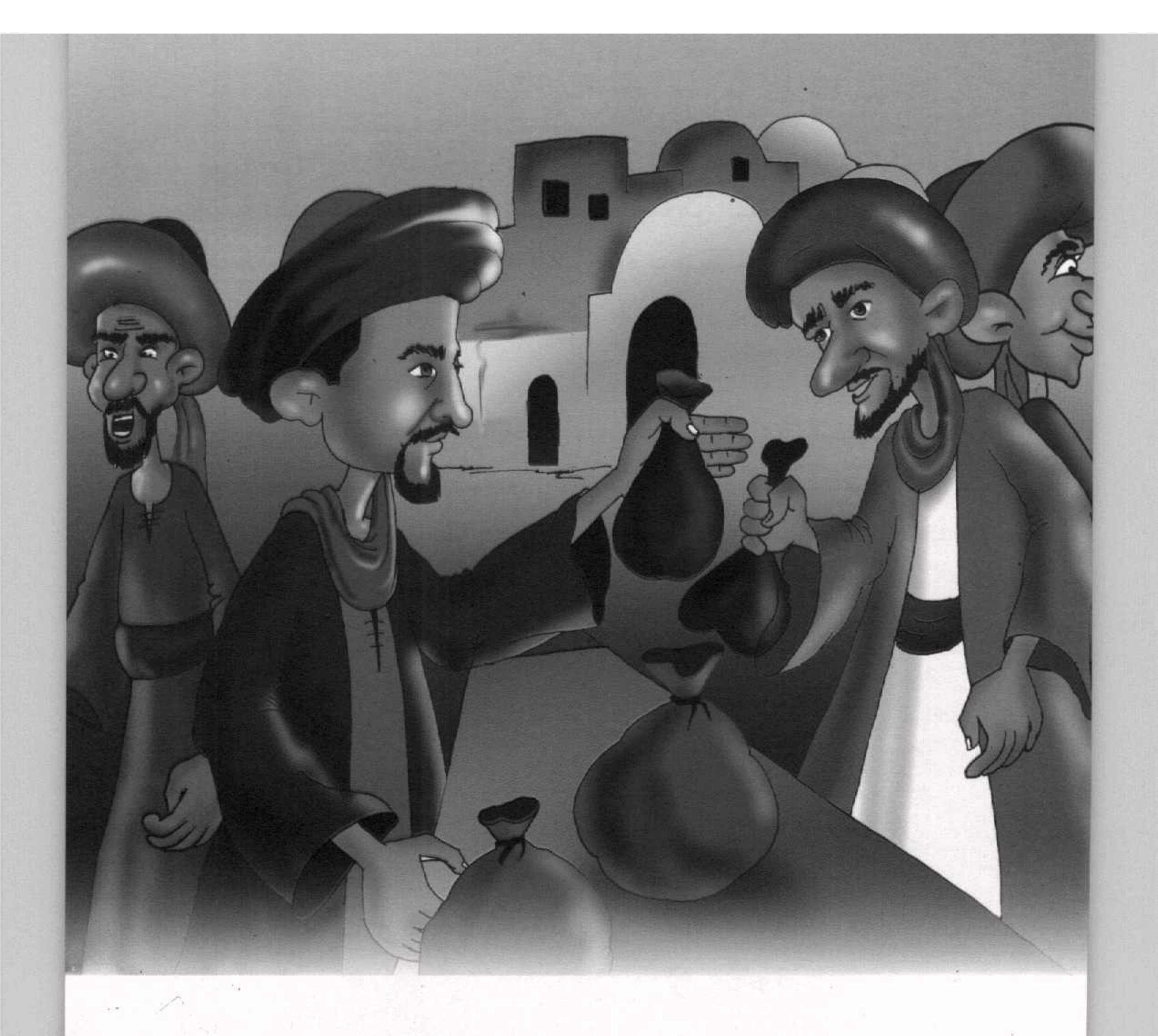
الأحجار بدلاً من الأعمدة الصَّخْرِيَّة أو الرُّخَامِيَّة فقال "أحمد بن طولون" للمهندس ابْدَأْ فى التنفيذ وقد عَفَوْنَا عنكَ واستغرقَ يا أصدقائى بناء المسجد سَنَتَيْن وكان أولَ مسجد يُبْنَى بطريقة الأروقة وأَنْفَقَ عليه "أحمدُ بن طولون" مائةَ ألف دينار حتّى افْتُتِحَ عام ٨٧٦ ميلادية وكافأ المهندسَ بعشرة آلاف دينار وفى أول صلاة للجُمْعَة بالمسجد اعْتَلَى "أحمدُ بن طولون" المنْبَرَ وخَطَب فى الناسِ وقبلَ أن يُنْهِىَ الخُطْبَةَ قدم الشكرَ للمهندس المسيحى العبقَرى الذى كان له الفضلُ فى بناء المسجد وظلَّ نظامُ الأروقة يُطَبَّقُ فى العَمارة فى كلِّ أنحاء العالَم شرقاً وغرباً كأُسْلُوب من أساليبِ العمارة الإسلامية .

هكذا كان المسيحيون المصريون لا يَحْجُبُونَ حتى أفكارَهم العبقرية عن إخوانهمُ المسلمين فهُمْ على أرض مصرَ الطاهرة شعبٌ واحدٌ يتعايَشُون فى أمن وسلام ويعتبرُ جامعُ "أحمد بن طولون" الذى أصبح بعدَ أكثر من ألفٍ عام مِن إنشائه واحداً من أهمِّ الآثار الإسلامية فى القاهرة وأولَ مَسْجِد يُبْنَى بنظامِ الأروقة وكان مسجدُه أثراً من آثارَ هذا التعايُش ودليلاً عليه وسَيَبْقَى كذلك إنْ شَاء اللهُ وقد قامَ بتصميمه مهندسٌ مسيحىٌّ يا أصدقائى .

الحاجب والراهب والأمير

مُنْذُ قرون طويلة كان يحكُمُ مصر "أحمد بن طولون" وكان أميراً عادلاً يُنْصِفُ المظلومين وذاتَ يوم أمرَ حاجبَهُ أن يستَدْعىَ كبيرَ موظَّفى الضَّرائبَ الذى يقومُ فى موعدٍ محددَ كلَّ عام بجمعِ الضرائبَ مِن المصريين وعندما دخلَ عليه قال له .

اقْتَربَ موعدُ الضريبة فاخْرُجْ بنفسك واجْمَع الضرائبَ من البلاد القريبة . أرْسل الموظفين ليَجْمَعُوها من كلِّ أنحاء البلاد ولا تَظْلمُوا أحداً



ولا تأخذوا من أحد شيئاً أكثرَ من الضريبة .

خرجَ الموظفُ الكبيرُ من عند الأمير وكلَّفَ رجالَه بالتوجُّه إلى المدن البعيدة عن الفسطاط التى كانت عاصمةَ الدولة الطُّولُونيَّةَ وكان من بين هؤلاء الرجالِ جامعُ ضرائبَ شديدٌ طمَّاعٌ هوَ "أحْمَدُ بنُ يوسُفَ" فخرجَ معَ مجموعةٍ منَ الجندِ إلى محافظةِ الشرقية ليجمعَ الضرائبَ من أهلِها .

وفى إحـدَى قُرَى "بلْبـيس" اسْتـقبلَ والى المدينة هذا الموظفَ الـقادمَ لجـمع الضـرائب ليسَـاعَـدَه على جَـمْعـهـا من النـاس فى المدينة والقـرَى المجـاورة. وكـان فَـى إحـدَى هذه القُرى راهبٌ مَـسـيحَـىٌّ فـقيـرٌ يسـمى "سَـرْجَيُـوس" الشَّرْقَـاوى وأرادَ حاكـمُ بلـبيسَ أن يُحَـرِّضَ جامعَ الضـرائب عَلَيْه فقال له .

فى قرية قريبة من هنا راهبٌ "مسيحى" يُخْفى كَنْزاً ضَخْماً لا يعلَم بَأمْره أحدٌ واسمُه "سَـرْجيُوس" الشرقاوى فإذا ذَهَبْتَ لآخذ ضـريبَته فَخُذْ منه خَمْسمائة دينـار فإنْ رفَضَ أخَذْنَا منه الكنـزَ الذى يُخفيـه وأَخذَ كلُّ واحد منا نصْفَه .



قال جَامعُ الضرائب وعَينَاه تَلْمَعَان بالشَّر .. كَنْز .. سوفَ آخُذُ الخَمْسمائة دينار حتى لو أَخْفَى الكَنْز .. استَيْقَظَ الراهب "سرجيوس" وهو لا يَدْرى شيئاً عن أمر جامع الضرائب فتناولَ طعامَ الإفطار وبدأ يستعدُّ للذهاب للكنيسة وقبلَ أن يرتدىَ ملابسَ الرُّهْبَان سَمعَ طَرْقاً شديداً على البابَ فخرجَ مُسْرعاً ، وجدَ الراهبُ حاكمَ المدينة ومعه عددٌ من الجنود وشخصٌ لا يعرفُه يركَبُ حصاناً ويحيطُ به الجنودُ . وقال جامعُ الضرائب .

- أنت "سرجيوس" ؟



قال الراهب :

- نعم . ماذا تريدُونَ منى ؟ تفضَّلُوا بالدخول .

قال حاكمُ المدينة : لا ... لا نريدُ الدخولَ وليس لدينا وقتٌ فهذا جامعُ الضرائبِ جاء ليأخذَ منك الضرائبَ .

قال الراهب .

- ولكننى لا أملكُ الضريبةَ الآن فأمْهِلُونى عدةَ أيامٍ وسوف أحمِلُها إلى منزل الحاكم فى "بلبيس" .

قال جامعُ الضرائبِ فى غَضَب .

- لا تَملكُ الضريبةَ ! هل تظنُّ أننا لا نَعْرِفُ أمْرَ الكَنْزِ الذى تُخفيه فى دَارِكَ ؟

قال الراهب .. كَنْز ؟ هذا كَذِبٌ أنا لا أملِكُ أىَّ كنز .

وأشارَ الحاكمُ إلى الجنود فدخلوا المنزلَ يُفَتِّشُونَ والرجلُ يبكى ويرجُو الجنودَ ألا يَنْهَبُوا ما فى المنزلِ من أشياءَ قليلة يملكُها هذا الرجلُ الفقيرُ .

وعندما عادَ أحدُ الجنود فى يَدَيْه كيسٌ مَلىءٌ بالنقود قال جامع الضرائب : فى داركَ خَمْسُمائة دينار ولا تريدُ دفعَ الضريبة ؟ من أين أتيْتَ بهذا المالِ أليس هذا من الكَنْزِ الذى تُخفيه ؟ .

صَرَخَ الراهب :

- أرجُوكم هذه أمانَةٌ عِنْدى وليست أموالى . لا تأخذُوها فأنا لا أملُكُ منها شيئاً .

وأشارَ حاكمُ المدينة إلى الجنود وعادوا جميعاً بعد أن أخذوا من الراهبِ المسكين الأمانةَ المُودَعَةَ عنده .

انصرفَ الجنودُ وخرجَ جيرانُ الراهب يحاولونَ التخفيفَ عنه وهو يبكى حزناً لأنه يريدُ أن يُعْطِىَ الأمانةَ لصاحبها فقال له أحدُ جيرانه :

- أنت رجلٌ طيبٌ ولن يَضيعَ حقُّكَ بإذن الله وإذا شَكَوْتَ إلى الأمير "أحمدَ بن طولون" فسوفَ يُعيدُ إليك هذا المالَ إنه أميرٌ عادلٌ .

قال الراهبُ فى حُزْن .

- لكننى مَسيحىٌّ وجامعُ الضرائب موظَّفٌ كبيرٌ ، وهو مُسْلمٌ مثْلُكم ولا أظنُّ الأميرَ "أحمدَ بْنَ طولون" يُنْصفُ مسيحياً فقيراً مثلى ويعاقبُ موظفاً كبيراً مسلماً .

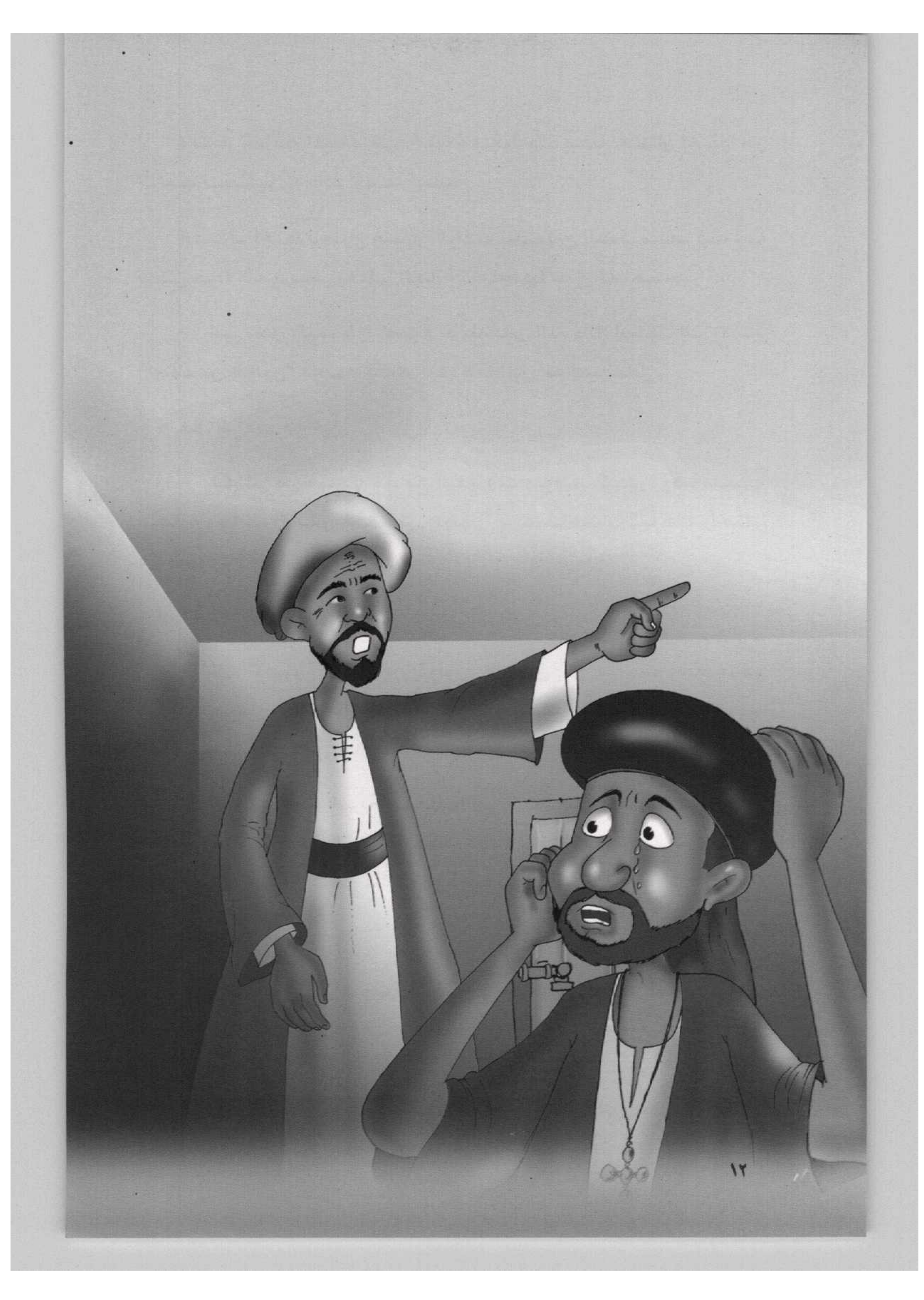
قال جَارٌ :

- لا .. الأميرُ "أحمدُ بن طولون" لا يفرقُ بين مسلم ومسيحى وسوفَ يعيد إليك حقَّك . اذْهَبْ إلى الفسطاط واكْتُبْ قصتَك وأعْطها للحاجب الواقف على بابه وسوفَ يُعْطيها الحاجبُ للأمير .

خرجَ الرجلُ من القرية مسافراً إلى الفسطاط وقضَى فى الطريق عَدَدَ ٥ أيام حتى وصلَ إلى الفسطاط فسألَ عن قصر "الأمير بن طولون" فلما وصلَ طلبَ أن يدخُلَ لمقابلة الحاجب ليُقَدِّمَ له شكوى .

فقال له الحارسُ :

- هات الشكوَى سوف أوَصِّلُها إلى الحاجب واجْلس هنا حتى أعودَ إليك .



دخلَ الحارس على الحاجبِ فأعطاه الشَّكْوى فلما قرأها قال :

– أين صاحبُ هذه الشكوى ؟

قال الحارس :

– يَنْتَظِرُ بالباب .

قال الحاجب .

– أَدْخِلُوه إلى هنا حالاً .

دخلَ الراهبُ "سرجيوس" إلى حجرةِ الحاجبِ فوجدَهُ يقرأ شَكْواهُ فقال الحاجب:

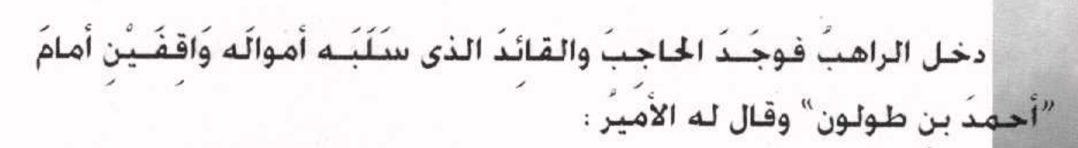
– هذا الذى أخذَ منكَ المالَ أحدُ كبارِ قُوَّاد الأميرِ وهو صديقُه ولو عَلمَ الأمير "أحمدُ بن طولون" بما فَعَل لعاقَبَه عقاباً شَديداً . فهل تقبلُ أن أُعْطِيَكَ خَمْسَمائةِ دينارٍ بَدَلَ التى أخَذَها منك وَتُسامِحُه .

قال الراهب :

– نعم أقبلُ أن آخذَ الدنانيرَ وأُسامِحُه .

وانصرفَ الراهبُ سعيداً بعودةِ حقه إليه وسافرَ إلى قريتِه ليُحَدِّثَ جيرانَه بما فعلَ الحاجبُ الطيب .

بعد أيام كان الراهبُ قد نَسىَ ما حدث عندما جَاءه جُنْدىٌّ يطلبُ منه الحضورَ إلى دار الحاكم فى المَدينة . فلما ذهبَ وجدَ رسولاً من عند "أحمدَ بن طولون" يطلبُ منه السفرَ إلى الفُسْطَاط . سافرَ الراهبُ وهو خائفٌ ولا يعرفُ ما يَحْدُث له وفى قصرِ "أحمدَ بنِ طولون" كانت المفاجأة .



دخل الراهبُ فوجَدَ الحاجبَ والقائدَ الذى سَلَبَه أموالَه وَاقفَيْن أمامَ "أحمدَ بن طولون" وقال له الأميرُ :

- لقد علمتُ بقصتك أيها الراهبُ الطيِّب . أخْطَأتَ فلو شَكَوْتَ لى ما حدَثَ ولم تَأْخُذ الخَمْسَمائَة دينار من الحاجب لأعْطَيْتُكَ بدلاً منها ثَلاثَةَ آلاف دينار تعويضاً عن الظُّلْمَ الذىً حدَثَ لك وعقاباً لهذا الظالم الذى ظَن أَننىً سوفَ أتركُه يَسلُبُ أَموالَ الناس لأنه قائدٌ من قُوَّادى .

والتفت "أحمد بن طولون" إلى الحاجب وقال :

- وأنتَ أيها الحاجبُ . لولا أننى متأكدٌ أنكَ كُنْتَ تَقْصدُ خيراً بما فعلتَ لأمَرْتُ بوضعكَ فى السجن فالصَّداقةُ التى تربطُكَ بهذا القائد الظالم لا تُعْطيكَ الحَقَّ فى إخْفاء أخطائه عنى .

قال الحاجب :

- سَامحْنى يا مولاىَ فإنما كنتُ أقْصدُ خيراً بما فعلت .

قال "أحمدُ بنُ طولون" :

- أُسَامحُك بشرط ألا تفعلَ مثلَ هذا مرةً أُخْرَى .

قال الحاجب .

- شكراً لك يا مولاىَ ولن أفعلَ مثل هذا أبداً .

والتفَت "أحمدُ بن طولون" إلى القائد الظالم الذى أخذَ المالَ من الراهب وقال :

- وأنتَ هل بَعَثْتُكَ لتأخذَ الأموالَ من الفقراء بدُون حَقٍّ ؟

قال القائدُ :

- لا يا مَوْلاَى .

قال "أحمد بن طولون" .

- فَلمَاذا ظلمتَ الضعيفَ الفقيرَ وأَخَذْتَ منه المالَ ؟

قال القائد :

- سامحْنى يا مولاىَ فلن أفعلَ مثل هذا أبداً . وسوفَ أردُّ للحاجب الخَمْسَمائَة دينارٍ التى دفَعَها إلى الراهب .

قال الأمير :

- لا .. لا أسامحك فقد ظلمت رجلاً فقيراً وأخذت أمواله دون حق وخنت الأمانة ولابد أن تعاقب عقاباً شديداً .

وأمر به فوضع فى السجن على الفور .

وعاد الراهب المسيحى الفقير إلى قريته وهو لا يكاد يصدق أن الأمير "أحمد بن طولون" ينصفه وهو مسيحى فقير على الموظف الكبير وهو مسلم قبل الأمير ولكن عدل "أحمد بن طولون" الحاكم المسلم كان لا يفرق بين مسلم ومسيحى ولا بين كبير وصغير ولا بين غنى وفقير ... وهو ينفذ تعاليم الدين الإسلامى السمح على أحد كبار قواده فى البلاد لهو حاكم مصر كلها ومسئول عن الرعية فى البلاد فلا فرق فى المعاملة بين مسلم ومسيحى فكلهم مصريون ينعمون على أرض مصرية يشربون من نيلها ويأكلون من خيراتها هكذا التسامح ... وهكذا يكون العدل بين الرعية ليسود الحب بين أبناء الوطن مهما اختلفت دياناته .